المنهج الإثنوميتودولوجي:
الأسس النظرية والتقنيات الأمبريقية

د وسيلة يعيش خزار

المدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة/ الجزائر

تمهيد:

يمثل الاتجاه الاثنوميتودولوجي أحد أبرز المحاولات النقدية المعاصرة للاتجاهات السوسيولوجية التي تميل إلى التقريب بين العالم الاجتماعي الثقافي من ناحية والعالم الطبيعي من ناحية أخرى، مؤكدا الفارق الهام بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية. فالظواهر الاجتماعية تخضع لطائفة من المعانِي التي يتعين اكتشافها، كما أنها تكتسب معاني خاصة بالنسبة للأفراد الذين يعيشون في إطار ثقافي معين، خلافا للظواهر الطبيعية التي لا تعبر عن بناء خاص من المعاني ، كما أنها تتيح للباحث حرية الملاحظة، والتفسير الخارجي المستقل. إنه اتجاه يرفض اعتبار العلوم الطبيبعية نموذجًا يمكن أن تحاكيه العلوم الاجتماعية، ويدعو إلى تطبيق تقنيات منهجية مغايرة لفهم الواقع الاجتماعي.

هذا التصور الاثنوميتودولوجي المتميز يستمد أصوله من الفلسفة الفينومينولوجيةِ، من حيث كونها جهد موظف لوصف الظواهر كما تبدو لنا من خلال وعينا بها . فالوعي هو وسيلة وهدف الفينومينولوجيا، حيث يرى روادها [1] أن معرفتنا بالعالم الفيزيقي إنما تأتي عن طريق خبرتنا الذاتية ، وهذه الخبرة هي التي تمكننا من إدراك جوهر الأشياء. إنهم يبدأون بتجاهل مسألة الواقع الموضوعي أو وضعه بين قوسين على حد تعبيرهم، حتى يمكنهم توجيه اهتمامهم للواقع كما يوجد في الوعي أو الشعور الفردي. فأي فهم لشيء موضوعي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال وعي الفرد بذلك الشيء، مما يعني أنه لا وجود للواقع مستقلاً عن الوعي أو الشعور، والموضوعية لا تتحقق إلا عن طريق الذاتية، طالما أن جوهر الأشياء هو ما يفهمه العقل الإنساني عن طريق خبرته الذاتية بالعالم.

إن الفينومينولوجيا بتركيزها على دراسة العملية التي نفهم بها العالم وليس على تفسير هذا العالم، قد ساهمت بقدر كبير في تحويل بؤرة اهتمام النظرية السوسيولوجية من البحث عن الأسباب إلى البحث عن النوايا أو المقاصد أو المعاني التي توجد في عقول الأفراد...فكان ميلاد

الاثنوميتودولوجي.

1. نشأة المنهج الاثنوميتودولوجي:

مع حلول عقد الستينيات، دعا عدد متزايد من الباحثين إلى إعادة النظر في المدخل الوضعي الكلاسيكي، لكونه غير كاف في نظرهم لاستكشاف الواقع الاجتماعي المعقد والمتطور باستمرار، إنهم أنصار المدخل التأويلي. إن الوقائع الملموسة والمتكررة التي يمكن إخضاعها للملاحظة والقياس، في ضوء المدخل الوضعي، ليست كذلك بالنسبة لهم، إنها ليست ملموسة بالقدر الذي تظهر عليه، كونها تخفي أشكالا من الوعي، تصورات مختلفة، ومعاني متباينة... يجب على الباحث أن يأخذها بعين الاعتبار. كما أنها ليست أبدا بسيطة، فالافراد لديهم نوايا ومقاصد، يتم التعبير عنها في أفعال يمكن ملاحظتها، ولكي نفهم فعل الفرد، لابد أن نفهم المعنى الذي يكمن وراءه. وهذا التصور المنهجي يختلف تماما عن ذلك الذي تعتمده العلوم الطبيعية، فالموقف الأنطولوجي (ماذا نعرف؟ طبيعة موضوع المعرفة) يحدد الموقف الأبيستمولوجي (كيف نعرف؟ ومدى صحة ودقة معارفنا)، مما يعني ضرورة تطوير مناهج وأدوات بحث خاصة تسمح بدراسة الظاهرة الاجتماعية من الداخل.

إن ركائز الخطاب العلمي في المدخل التأويلي، لا تأخذ بعين الاعتبار المواضيع الخاجية المستقلة عن الذات العارفة، ولكن أحاسيس ورؤى هذه الأخيرة اتجاه العالم الخارجي، مما يفرض استحداث منهجية موضوعية انطلاقا من ذاتية الذات العارفة. ضمن هذا المنظور انبثق المنهج الإثنوميثدولوجي في الولايات المتحدة الأمريكية عام **1967**، على يد عالم الاجتماع الأمريكي " **هارولد جارفينكل**" [2]، إثر نشره كتابا بعنوان: " **دراسات في الإ ثنوميثدولوجي**".كان هذا العمل المتميز ثمرة تحقيقات ميدانية مكثفة أجراها " **جارفينكل**" على واقع الحياة اليومية، أفضت إلى تأسيس حقل منهجي جديد أطلق عليه اصطلاح "**الاثنوميتودولوجي**."[3]

حدد "**جارفينكل**" المقصود با لإثنوميتودولوجي بقوله: "إن الدراسات الإثنوميتودولوجية تحلل أنشطة الحياة اليومية تحليلا يكشف عن المعنى الكامن خلف هذه الأنشطة، وتحاول أن تسجل هذه الأنشطة، وتجعلها مرئية ومنطقية وصالحة لكل الأغراض العلمية. وتهدف هذه

الدراسة إلى الكشف عن الطرق التي يسلكها أعضاء المجتمع خلال حياتهم اليومية لتكوين نوع من الألفة بالأحداث والوقائع"[4]. ويوضح "**معن خليل عمر**" بإسهاب المقصود بهذا التعريف مؤكدا أن الدراسات الإثنوميتودولوجية تهتم بدراسة الفعل الاجتماعي العملي الذي يقوم به الفاعل فعلا ، بشكل روتيني، مستمر ودوري ، وبالذات عند العوام من الناس أكثر من خواصهم . مرادها في ذلك معرفة انعكاساته عليهم، وهل لهم رغبة بفعله ، أم أنه مفروض عليهم؟ و ذلك لإثبات حقيقة مفادها أن الفاعل ليس بإمعة ، أو أداة طيعة يفعل ما يقال له أو يؤمر به ، على نحو ما تقره الوضعية والوظيفية، بل يملك إرادة و عقلا يفاضل بهما بين البدائل المتاحة له في محيطه الاجتماعي. و ما تم تفسيره من قبل هاتين النظريتين بهذا الخصوص لا يخرج عن كونه أحكاما فضفاضة وجائرة ، نابعة عن رؤية غير متعمقة بجزئيات فعل الفاعل.[5]

وقد وظف " **جارفينكل**" وأتباعه في دراساتهم الأمبريقية، جملة من التقنيات المنهجية الكيفية المستحدثة، الكفيلة من وجهة نظرهم بالكشف عن المعاني الكامنة خلف مواقف الحياة الاجتماعية، وهو ما عبرنا عنه إجمالا بـ"**المنهج الاثنوميتودولوجي**".

تعود الارهاصات الأولى لهذا المنهج إلى عام **1954**، عندما كان "**جارفينكل**" يعمل ضمن فريق بحث بمدرسة القانون، بجامعة "شيكاغو". انصب اهتمام فريق البحث على دراسة عمل هيئة المحلفين في القضاء الأمريكي، وكانت مهمة " **جارفينكل**" تقتصر على تحليل بعض الأشرطة التي سجلت عليها مداولات المحلفين. لكن اهتمام " **جارفينكل**" بموضوع المحلفين كان أكبر من أن يقف عند مجرد تحليل بعض الأشرطة. لقد تمحور انشغاله الكبير حول سؤال مركزي مفاده: كيف عرف المحلفون ما يجب أن يقوموا به أثناء ممارستهم لدورهم كمحلفين، بالرغم من أنهم لم يتلقوا أي تدريب على ذلك؟ إن هؤلاء المحلفون من عامة الناس، ليسوا بعلماء ولا بمتخصصين في مجال القانون، إلا أنهم يملكون قدرة كبيرة على تفنيد الأدلة واستخلاص المؤشرات من الشهادات المختلفة. هذه القدرة على التفريق بين الصواب والخطأ، بين الحقيقة والزيف، بين ما وقع وما يعتقدون أنه وقع، بين ما قيل وما يعتقدون أنه قد قيل، بين الوقائع الفعلية واحساساتهم وانطباعاتهم الذاتية حول تلك الوقائع، وأكثر من ذلك قدرتهم على الوصول إلى قرار موحد فيما بينهم حول الواقعة المعينة، هو ما أثار اهتمام "**جارفينكل**"، لينتهي في الأخير إلى أن منهجهم في الفهم وفي اتخاذ القرار تتداخل فيه أمور ثلاثة:

- الوقائع الفعلية التي حدثت.
- احساساتهم وانطباعاتهم الذاتية حول تلك الوقائع.
- الفهم الشائع داخل المجتمع.

فإذا ما تطابقت الوقائع والأدلة والشهادات المعروضة، مع انطباعاتهم واحساساتهم الذاتية عنها، ومع ما هو مألوف وشائع في المجتمع، فإن ذلك هو ما حدث بالفعل. مما يعني أنهم يستخدمون أسلوبا غير علمي في اتخاذ قراراتهم، وهو ما أراد " **جارفينكل**" التعبير عنه باستخدامه لمصطلح "الاثنوميتودولوجي". فعالم الاجتماع لابد أن يعتمد في فهمه لمواقف الحياة اليومية على أحاسيس الأفراد وانطباعاتهم، وعلى المعرفة الشائعة في المجتمع حتى يستطيع اكتشاف القواعد العامة التي تنظم الحياة الاجتماعية لهؤلاء الأفراد. لقد مثل تحليل " **جارفينكل**" لمضمون المحادثات المسجلة، ومقارنتها بالتصريحات التي أدلى بها المحلفون خلال المقابلات التي أجراها معهم، أحد التقنيات المنهجية الهامة التي ميزت أعمال رواد الاثنوميتودولوجي فيما بعد.

لقد استطاع "**جارفنكل**" تكوين مدرسة فكرية تبنت هذا المنظور المنهجي الجديد بجامعة" كاليفورنيا"، بـ"لوس أنجلس" حيث كان يزاول مهنة التدريس ، ثم انتشر هذا المنظور حديثا في باقي الولايات المتحدة وكندا و بريطانيا و غير ذلك من الدول . ومما ساعد على انتشاره بروز الحاجة إلى تأسيس نظرية سوسيولوجية تحتل فيها حرية الفرد وأفعاله القصدية مكانا بارزا، لاسيما في ظل عجز النظريات السوسيولوجية الكبرى عن إيجاد حلول للأزمات السياسية والأخلاقية التي تعرض لها سواء المجتمع الأمريكي أو غيره من المجتمعات الأوروبية والنامية ، نتيجة لانتشار الحروب العسكرية والانفصالية والدينية والسياسية، وعجز العلوم الاجتماعية عن دراستها، وتقديم تفسير مقنع لها .

2. الأسس النظرية التي ينهض عليها المنهج الاثنوميثدولوجي:

على الرغم من تنوع الإسهامات التي تدخل ضمن هذا المنظور، إلا أنها تدور عموما حول المنطلقات النظرية التالية:

- دراسة الواقع الروتيني اليومي: يهتم رواد المنهج الإثنوميتودولوجي بواقعية الفعل الاجتماعي الصادر من الفاعل كما هو، لا كما يجب أن يكون عليه، و ذلك في الأماكن العامة

التي يلتقي فيها الناس لإنجاز أعمالهم، أو إشباع حاجاتهم الاجتماعية اليومية التي تقع بشكل متكرر و رتيب، و تشغل اهتمام الناس في الشؤون العامة والخاصة، وتعكس تصرفهم العملي لا الفكري، والذي يمكن ملاحظته و تسجيله. ويتضح مما سبق أن الأفعال الظرفية والطارئة والعابرة لا تمثل اهتمام رواد هذا المنهج، لأنها لا تمثل فعلا اجتماعيا مستمرا في الحدوث، يمكن بواسطته التوصل إلى معرفة معايير ضبطه و موجهاته القيمية. ومن هنا يمكن القول أن هذا المنهج يركز على مستويات التحليل السوسيولوجي الصغرى.

- ذاتية الواقع الاجتماعي: ينظر رواد هذا المنهج إلى الواقع الاجتماعي باعتباره غير منفصل عن شعور وإدراك الفاعل الذي يعيش فيه، وليس للمعرفة أي معنى إذا لم تكن مستقاة من تصوراته وأفكاره وخبراته. إن عناصر الواقع لا تكتسب الصفة الاجتماعية إلا لأننا نحسها و نترجمها في خبرات ذاتية لنا وللآخرين ، عن طريق العواطف والكلمات والصور والإشارات . بناء على ذلك لا يمكن أن نفرق بين ما هو اجتماعي وما هو غير اجتماعي، لأنه ليس هناك جانب من جوانب الحياة أو المعرفة الإنسانية ، سواء أكانت معرفة علمية أو دينية أو سياسية ، إلا و يختلط بوجودنا الاجتماعي. ولا شك أن هذا الافتراض يناقض مبدأ الشيئية في التصور الوضعي.
- إيجابية الفاعل الاجتماعي: إذا كانت النظريات الكلاسيكية (الوضعية و الوظيفية) تصور الإنسان على أنه نتاج واقعه الاجتماعي الذي يشكله، ويحركه كيفما يشاء، ككائن يلعب دورا محددا، وبالتالي تدعو إلى دراسته من وجهة نظر المشاهد الخارجي، مؤكدة على مبدأ الفصل بين الذات العارفةوموضوع المعرفة. فإن المنهج الإثنوميثدولوجي ينظر إلى الإنسان على أنه يمتلك عنصر المبادأة في الفعل الاجتماعي، إنه فاعل يصنع أفعاله في ضوء أهدافه، وفي ضوء محاولاته المستمرة لأن يقيم الموقف الذي يسلك داخله، ومن ثم فهو ينحو إلى دراسة العالم الاجتماعي من وجهة نظر الأفراد الذين يكونون هذا العالم، ويتحكمون في تحديد مصائرهم الخاصة. إنه لا يفصل بين الذات العارفةو موضوع المعرفة.
- عقلانية الفعل الاجتماعي: ينظر رواد هذا المنهج إلى الفعل الاجتماعي باعتباره عقلانيا، يتصف بمنهجية، ويتبع خطة. فالتفاعل الاجتماعي بين الأفراد يستلزم الفهم المتبادل بينهم، واحتساب ردود أفعالهم وتقييمها، "و هذا يعني أن كل موقف تفاعلي له منطق، إذا نظرنا إليه من وجهة نظر الفاعل نفسه أو مجموعة الفاعلين الداخلين فيه، بحيث يتضح منطق الموقف في

إدراك الفاعل له وتحديده و تقييمه، وهنا تختفي التمييزات المزعومة بين الأفعال المنطقية وغير المنطقية، الرشيدة وغير الرشيدة، العقلانية وغير العقلانية". (6)

- دور اللغة في تنظيم المجتمع: تنبعث قيمة اللغة بالنسبة لهذا المنهج في أن حديث الأفراد، والطريقة التي يتحدثون بها، والمجال الذي يتم فيه الحديث، كل هذا هو ما يشكل بالفعل الواقع الاجتماعي . إن تبادل وجهات النظر ، أو الفهم الضمني بين الأفراد يقوم أساسا على اشتراكهم في بناء لغوي واحد، وإدراكهم لقواعد هذا البناء، مما يسمح بالتواصل بينهم. و هذا ما يفسر تركيز رواد هذا المنهج على تحليل المحادثات و التفاعلات الرمزية.
- واقعية المصطلحات العلمية: يرفض رواد هذا المنهج استخدام علماء الاجتماع التقليديين لمصطلحاتهم الخاصة بهم، و إلزام الآخرين باستعمالها وتداولها للتعبير عن مدلولات اجتماعية واقعية. إن هذا الإجبار الاصطلاحي من قبل علماء الاجتماع يمثل قهرا للواقع، وإجبارا للناس على تداول مصطلحات غير واقعية لتدل على معاني واقعية. (7)في هذا السياق يأتي تمييز "**جارفينكل**" بين التعبيرات الدالة و التعبيرات الموضوعية. حيث تشير الأولى إلى الموضوعات والأشياء التي يتم وصفها في ضوء نوعيتها الخاصة وتفردها، فهي محددة بالسياق أو المحتوى الذي استخدمت فيه. أما التعبيرات الموضوعية فهي تصف الخواص العامة للظواهر التي تشير إليها. إنها تعبيرات نمطية لا شأن لها بالمحتوى أو السياق، وهي تمثل الأساس الوحيد الذي تستند إليه أي دراسة ترغب في أن تتسم بالعلمية على نمط العلوم الطبيعية. ذلك لأنها تمكن من المناقشة القائمة على القواعد الصورية ، ومن صياغة قضايا عامة، ومن إقامة التصنيفات أو الفئات عن الظواهر الاجتماعية. و بينما تستخدم التعبيرات الدالة خلال أنشطة الحياة اليومية، تستخدم التعبيرات الموضوعية في الأنشطة العلمية . ويرى "**جارفينكل**" أن "علم الاجتماع في سعيه لأن يكون علما يعمل على تفسير أنشطة الحياة اليومية ، لابد أن يستخدم التعبيرات الدالة، أي نفس اللغة والأسلوب الذي يستخدمه الأفراد الذين يشكلون وينتجون هذه الظواهر فعلا، حتى تتضح له نفس المعاني التي يسبغونها على واقعهم". (8)
- مرونة البناء الاجتماعي: يؤكد رواد هذا المنهج مرونة البناء الاجتماعي، فهذا الأخير لا يملك صورة أبدية ومحددة، بل يتخذ أي صورة ممكنة حسب تصورات الأفراد ، و أسلوب تحديدهم للعلاقات فيما بينهم. ومن ثم فإن الأفراد لا يشكلون أنساقا ثابتة، بل يشكلون أنساقا

مرنة، والبناء الاجتماعي بناء على ذلك يتغير بتغير الزمان و المكان وطبيعة الأفراد الذين يصنعون المواقف داخله. وهكذا يقلب رواد هذا المنهج مشكلة النظام رأسا على عقب ، لتصبح المشكلة متمثلة في: كيف يشكل الأفراد الظروف التي تحيط بهم، وكيف يحافظون عليها أو يغيرونها؟

- رفض المناهج الكمية: ينتقد رواد هذا المنهج استخدام الوسائل الإحصائية في دراسة المشكلات والظواهر الاجتماعية، إذ يعدونها مضللة للواقع بسبب أرقامها الصماء المترجمة من قبل الباحث. فيفسر ما يريد تفسيره، ويهمل ما يريد إهماله ، حسب ثقافته الاجتماعية ، وميوله التنظيرية، وانتمائه الطبقي، والإيديولوجي، وهذا ما يفسد الواقع ، ويلونه بألوانه المائية التي لا تمثل الألوان الحقيقية. ليس هذا فحسب، بل إنه لا يمكن أن تتم دراسة مشاعر و عواطف الناس بواسطة الإحصاء، لأن التعبير عنها لا يترجم إلى أرقام، بل إن المشاكل المعقدة والمتشابكة مع مشاكل وظواهر أخرى يتعسر وينوء على الإحصاء دراستها، و هذا تشويه للواقع.

يتضح من خلال المنطلقات النظرية السابقة، نجاح رواد هذا المنهج في الانفصال عن النظريات الكبرى (الو ضعية و الوظيفية) ، من خلال تركيزهم على الفرد كوحدة للتحليل السوسيولوجي، بدلا من التركيز على البناء الاجتماعي والأنساق الاجتماعية . وفي نظرتهم إليه على أنه فاعل يمتلك الحرية في اختيار أسلوب فعله ، بعيدا عن أية مؤثرات خارجية قهرية وملزمة . وفي إشارتهم إلى مرونة البناء الاجتماعي ، وقابليته للتغير بما يتفق وطموحات هذا الفرد، مع رفضهم استخدام المناهج الكمية التي تعتبر السمة المميزة لهذه النظريات.

3. المفاهيم الأساسية التي ينهض عليها المنهج الإثنوميثودولوجي:

إن تفحص إسهامات رواد هذا المنهج، يكشف لنا عن استخدامهم لمفاهيم خاصة نوجزها فيما يلي:

- **عالم الحياة اليومية** : يقول "**جارفينكل**" لعالم الاجتماع الذي يرغب في دراسة الحياة اليومية: "انظر حولك، و في كل مكان، فسوف تجد أشخاصا عاديين يمارسون حياتهم بمختلف أوجه النشاط، وهذه القدرة على الدخول في صلات متبادلة من خلال تلك الأنشطة، هي التي تجعل العالم الاجتماعي ممكنا، و عليك كعالم اجتماع أن تأخذ هذه الأفعال الملموسة و المألوفة لدى الجميع، وأن تفحصها لكي يتبين لك كيف تقع و لماذا "؟[9] من هنا دلفت الإثنوميثودولوجي إلى مدار المؤسسات الرسمية ، لتفهم التفاعلات الاجتماعية بين العاملين،

ودخلت منازل الأسر لتتعرف على النسيج العلائقي الذي ينس ج فيها، وولجت قاعات المحاكم، وترددت على مراكز الشرطة، و نفذت إلى العيادات الطبية للاطلاع على ما يدور في أروقتها ، ودهاليزها من أنشطة تمارس على أرض الواقع.

- **الفعل المنعكس**: و يشير إلى أن كثيرا من أنماط التفاعل التي تحدث بين أعضاء المجتمع ، تهدف إلى المحافظة على رؤية معينة للحقيقة الاجتماعية التي قاموا بتشكيلها في مواقف محددة. ونجد أن كثيرا من أنماط التفاعل بين أعضاء المجتمع تعتبر أفعالا منعكسة. فالكلمات والإشارات والإيماءات التي نستخدمها أثناء عملية التفاعل، تهدف إلى المحافظة على رؤية معينة للحقيقة الاجتماعية، و تستخدم في تشكيل وتفسير وإعطاء المعاني للعالم الاجتماعي.
- **البيئة المرتبطة بالمعنى** : و تشير إلى أن التفاعل المتبادل بين أعضاء المجتمع يتضمن معان تدركها عقولهم مباشرة، وهي معان تفوق دلالتها ومغزاها ما قد تدل عليه إشارة أو كلمة أو عبارة في حديث متبادل بينهم. ومن ثم فإن الإشارات أو الكلمات أو العبارات التي ترسل أو تستقبل أثناء عملية التفاعل بين أعضاء المجتمع، يكون لها معان ترتبط بموقف معين، أو بيئة أو ظروف معينة. و من الصعب تفسير عملية الاتصال الرمزي بين الأعضاء المتفاعلين ، دون الحصول على بعض المعلومات عن هذا الموقف أو البيئة أو الظروف.
- **العقلانية**: و تشير إلى أن مواقف الحياة اليومية تكشف عن ضرب من ضروب العقلانية، حيث أن الأفراد يشتقون لأنفسهم مناهج عقلية رشيدة توجه سلوكهم، و لقد حدد "**جارفينكل**"(**14**) مجالا تظهر فيها هذه الأنماط الرشيدة من السلوك و هي:[10]

1. عندما يصنف الفرد الأشياء أو الناس أو يقارن بينها.
2. عندما يزن الأمور أو يقدر خطأ محتملا.
3. عندما يبحث عن الوسائل التي تحقق أهدافه.
4. عندما يحلل البدائل و النتائج المترتبة عليها.
5. عندما يستخدم استراتيجية معينة.
6. عندما يقدر قيمة الوقت.
7. عندما يتنبأ بالأحداث.
8. عندما يستعمل قواعد إجراء معين.

9. عندما يقدم على الاختيار.
10. أو يستعمل معايير مقررة للاختيار.
11. عندما يطابق بين الغايات و الوسائل من خلال معايير مقررة أيضا.
12. عندما يسعى إلى الوضوح و التمييز بين الأشياء كي لا يقع في الخطأ.
13. عندما يسعى إلى الوضوح و التمييز كهدف في حد ذاته.
14. عندما يحاول أن يوفق أو يطابق بين تحديده للموقف و المعرفة العلمية.

4. التقنيات المنهجية التي يعتمد عليها المنهج الإثنوميثودولوجي:

رفض **"جارفينكل"** وزملاؤه الأساليب الكمية في البحث الاجتماعي ، كاستخدام الاستبيان والاختبارات، رفضا شديدا ذلك أنها تفصل بين الباحث وموضوع دراسته، وتتضمن معرفة قبلية بالواقع ، يفرضها الباحث فرضا على أداة بحثه. كما تحفظوا على استخدام أسلوب المقابلة لاسيما الموجهة، فمهما خلق الباحث من علاقة ألفة بينه وبين المبحوث، فإن موقف التفاعل أثناء المقابلة بما يتضمنه من اختلاف في الأسلوب اللغوي، والحركات الجسمية، وتعبيرات الوجه بالنسبة للباحث والمبحوث، يقيد هذه العلاقة، ويجعل كلا منهما يسعى لأن يكون عن الآخر قدرا من المعلومات تتعلق بطبيعة الآخر، وآرائه السياسية و خلفيته الاجتماعية. ويؤدي موقف التفاعل هذا بين الباحث و المبحوث ، إلى أن يحاول كلا منهما أن يسلك في ضوء الفكرة التي كونها . فيحاول الباحث تجميع أكبر قدر من المعلومات، ويحاول المبحوث أن يبالغ في محاولة إفادة الباحث، أو يحاول إنهاء المقابلة بأسرع ما يمكن. وبناء عليه، فإن المادة المجموعة تكون من إنتاج الباحث والمبحوث على حد سواء. ويتنافى ذلك مع ما يسعى المنهج الإثنوميثودولوجي إلى تحقيقه، من معرفة أفكار وقواعد سلوك المبحوث دون أي تدخل من طرف الباحث.

إن تطبيق المنهج الإثنوميتودولوجي يتطلب من الباحث مهارات خاصة، تقترب إلى حد كبير من تلك التي يمتلكها الأدباء والمؤرخون والصحافيون. فهو منهج يفترض دقة الملاحظة، وإرهاف السمع، وحضور العاطفة، والقدرة على الولوج إلى مختلف مستويات الواقع الاجتماعي. كما يتطلب القدرة على التعبير، والفهم، وإعادة خلق الوقائع الاجتماعية وبعث الحياة فيها. وهكذا فإن الباحث الإثنوميتودولوجي مطالب باستخدام جملة من المهارات لعرض أحداث ووقائع الحياة اليومية كما يعيشها الفاعلون الاجتماعيون، وهي في الواقع مهارات فنية أكثر منها علمية.

طبق المنهج الإثنوميتودولوجي في عدة مجالات نذكر منها: جماعات مناصري الفرق الرياضية، عصابات المنحرفين، أعضاء الطوائف الدينية، أقسام دراسية في اليوم الأول من التمدرس...كل جماعة من هذه الجماعات تبني وقائعها الاجتماعية المتميزة، ولفهم هذه الوقائع والكشف عن المعاني الكامنة خلفها، ينبغي على الباحث أن يتخطى حدود الجماعة، وأن يلاحظها من الداخل، وهي مهمة صعبة بالنظر إلى المسافة التي ينبغي أن يحافظ عليها الباحث، بينه كذات عارفة وبين مجموعة البحث التي اندمج فيها كموضوع للمعرفة. المنهج الإثنوميتودولوجي إذن وبرغم أصوله الفلسفية، منهج واقعي أمبريقي، يطبق في الدراسات الميدانية التي تجرى في مختلف حقول الحياة الاجتماعية، وهو يعتمد بشكل أساسي على الأدوات التالية: الملاحظة بالمشاركة، الحوارات الميدانية والمقابلات الإثنوغرافية، تحليل الوثائق الرسمية والشخصية، شبه التجارب.(11)

- **الملاحظة بالمشاركة**: تقوم على مبدأ حضور الملاحظ حضوراً فعلياً مباشراً في الموقف الذي تجري فيه الأحداث، بحيث يصبح عضوا من أعضاء الجماعة محل الدراسة، مندمجا في أوجه نشاطها، مشاركا أعضاءها خبراتهم وتجاربهم الاجتماعية، كأن يلتحق الباحث بالعمل في مصنع ينوي دراسة طبيعة العلاقات فيه بين العمال والإدارة. تبدأ فترة الملاحظة منذ انضمام الباحث إلى الجماعة، وتستمر إلى حين كتابته لتقرير البحث. عادة ما يفصح الباحث عن هويته المهنية، فيكون حضورهأمراً يعلم به من يلاحظهم ويوافقون عليه . ولكنه قد يلجأ أحيانا إلى إخفائها، وتثير هذه النقطة إشكالية أخلاقية مفادها: هل يحق لنا أن نجمع معلومات خاصة عن أشخاص بدون علمهم ؟ فضلا عن ذلك، فإن حرص الباحث المستمر على إخفاء شخصيته، يسبب له قلقا وتوترا قد يؤثر سلبا على نتائج الدراسة. وسواء أفصح الباحث عن هويته أو تعمد إخفاءها، فإن الأهداف النهائية للدراسة لا ينبغي أن تكون معروفة من قبل المبحوثين، حتى لا يؤثر ذلك على مواقفهم، آرائهم وسلوكياتهم .

تمر الملاحظة بالمشاركة بعدة خطوات:

- اختيار الباحث لمجتمع البحث، وقد لا يلجأ إلى ذلك إن كانت الدراسة مبرمجة قبليا من طرف مؤسسة رسمية أو غير رسمية.
- اختيار الأسلوب المناسب للدخول إلى مجتمع البحث. قد يكون هذا الأسلوب رسميا، كأن يقابل الباحث المسؤولين عن مجتمع البحث، ويشرح لهم أهداف الدراسة، ويقنعهم بجدواها وأهميتها. وقد

يكون غير رسمي، يعتمد فيه الباحث على علاقاته الشخصية التي تسهل له الدخول والاندماج في مجتمع البحث.

- تحديد درجة انتمائه للجماعة، بحيث يمكننا التمييز بين الانتماء الهامشي، والانتماء النشط، والانتماء الكلي للجماعة:

✓ الملاحظة بالمشاركة الهامشية: يحرص الباحث فيها على الدخول إلى الجماعة، والاندماج بأعضائها، والتفاعل معهم، مما يسمح له بملاحظتها من الداخل، ووصف نشاطاتها، ورؤيتها للعالم الخارجي. لكن مشاركته هذه تبقى هامشية، حيث لا يضطلع بالأدوار الهامة في حياة الجماعة. مثل هذا الحذر المنهجي نابع من اعتبارين: أولهما حرص الباحث على تحقيق أكبر قدر من الموضوعية، على اعتبار أن انغماسه الكلي في حياة الجماعة قد يعيق ملاحظته للكثير من المواقف الهامة، كما قد يعطل قدرته على تحليلها وتفسيرها. أما الثاني فيتعلق بطبيعة نشاط الجماعة أو معتقداتها، فالباحث الذي يدرس جماعة من المنحرفين يكون دائما حريصا على الابتعاد عن المشاركة في أي نشاط يخالف القواعد العامة، كما أن الباحث المسيحي الذي يدرس جماعة من اليهود قد يشارك في نشاطها الرياضي، أو الخيري، ولكنه عادة ما يمتنع عن المشاركة في طقوسها التعبدية.

✓ الملاحظة بالمشاركة النشطة: في هذا النوع من الملاحظة يضطلع الباحث بدور رئيسي وبارز في حياة الجماعة، كأن يكون مدرسا دائما بإحدى المؤسسات التربوية، وملاحظا في ذات الوقت للنشاط اليومي لأحد فصولها الدراسية. مثل هذا المركز يسمح له بحضور الاجتماعات الإدارية والبيداغوجية، كما يسمح له بالدخول بكل حرية إلى قاعة الأساتذة، والاستماع إلى أحاديثهم ومناقشاتهم التلقائية اليومية. لكنه من ناحية أخرى يضعه أمام عقبة هامة: كيف يستطيع أن يقترب من التلاميذ، ويكسب ثقتهم، ويجعلهم يتحدثون بكل تلقائية وحرية عن حياتهم المدرسية، وعلاقاتهم بالإدارة والأساتذة وهو واحد منهم؟

✓ الملاحظة بالمشاركة الكلية: وفيها يندمج الباحث بشكل كامل في حياة الجماعة، فيعتنق معتقداتها، ويتشرب عاداتها وتقاليدها، ويسلك على منوال أعضائها، فيصبح عضوا كاملا فيها.

وسواء كانت الملاحظة هامشية، نشطة، أو كلية، فإن سؤالا هاما لا يزال يطرح نفسه في الأدبيات السوسيولوجية: كيف يستطيع الباحث أن يندمج في حياة الجماعة، ويتقمص دور العضو فيها، ويتشرب أحيانا قيمها ومعتقداتها، ويؤدي في نفس الوقت دور العالم الملاحظ الموضوعي، الذي

يصف الأحداث والوقائع في إطار من الصرامة والدقة العلمية؟ كيف يمكنه أن يحافظ على المسافة المطلوبة بينه كذات عارفة وموضوع للمعرفة في آن واحد؟

- وأخيرا تسجيل الملاحظات عن الأحداث وقت وقوعها، وذلك حتى تقل احتمالات التحيز في انتقاء ما يسجل، وحتى يقل تأثير عامل التذكر. أما إذا كان الباحث متخفيا فعليه تسجيلها في أقرب وقت ممكن. وعليه أن يكتب وصفه في عبارات محددة دقيقة.

وعموما يمكننا إيجاز مزايا الملاحظة بالمشاركة في ما يلي:

- تمكن الباحث من تكييف نشاطه، و توجيه جهده، وتعديل تصوراته، وإعادة صياغة فروضه، بحسب ما يقتضيه الموقف الاجتماعي.
- تمكن الباحث من الوصول إلى فهم أعمق للظروف المحيطة بالسلوك، كما تمكنه من رصد ألوان عديدة من السلوك الخفي غير الظاهر.
- تساعد الباحث على الوصول إلى مصادر هامة للمعلومات، وإخباريين أكفاء أكثر مما يستطي عه باحث عابر.

أما عن جملة التحفظات التي تثار حولها فيمكننا إيجازها فيما يلي:

- اقتراب الباحث الشديد من الأحداث، قد يجعله يستغرق في التفاصيل، ويصرف ذهنه عن ملاحظة الموقف الكلي.
- قد يتجه الباحث إلى التركيز على أحداث بعينها، أو وصف وقائع بذاتها، ويمنحها من الاهتمام أكثر مما تستحق. كما قد يميل إلى نوع معين من الإخباريين دون سواهم.
- حين لا تكون فترة الملاحظة كافية، قد يتورط الباحث في أخطاء التسرع في الاستنتاج.
- قد يتوحد الملاحظ مع موضوعات الملاحظة، فيفقد القدرة على الرؤية الموضوعية.

- **الحوارات الميدانية والمقابلات الإثنوغرافية:** يعتمد الإثنوميتودولوجيون على الحوارات الميدانية إلى جانب المقابلات الإثنوغرافية المفتوحة. الفرق الجوهري القائم بينهما، يكمن في أن الحوارات الميدانية تتم بشكل تلقائي، أثناء تفاعل الباحث مع أعضاء مجموعة البحث. هذا التفاعل يرتبط بشكل أساسي بنشاط الجماعة، ولكنه مفيد جدا من حيث أن مضمون هذه الحوارات قد يتطابق مع أهداف الدراسة، فيجيب عن الكثير من انشغالات الباحث وتساؤلاته. خلافا للمقابلة الإثنوغرافية التي يبرمجها الباحث مع المبحوث مسبقا، والتي تكون الأدوار فيها واضحة ومحددة، فالباحث يدير المقابلة، والمبحوث مطالب بالإجابة عن تساؤلاته. إنها إذن حوار هادف

يعتمد بشكل كبير على الثقة التي يخلقها الباحث بينه وبين المبحوث. وعلى الرغم من أن المقابلة المفتوحة لا تخضع لأسئلة محددة مسبقا، إلا أن الباحث يتبع خط سير محدد في إدارته لها، بحيث يتدخل كلما شعر بالحاجة إلى معلومات أدق، أو تفاصيل أعمق، وكلما لاحظ خروج المبحوث عن الهدف المحدد للمقابلة. إنها إذن مقابلة مرنة، ولكنها تخضع للرقابة المستمرة للباحث. تعتمد هذه المقابلة على مهارة الباحث في جعل المبحوث يتكلم بشكل طبيعي وحر عن خبراته الاجتماعية. ينبغي على الباحث أن يراقب حركات وجه المبحوث، إيماءاته، نبرات صوته،... باعتبارها مؤشرات هامة تدل على الحالة النفسية للمبحوث.

وعموما يمكننا التمييز بين ثلاث أنواع من المقابلات الإثنوغرافية:

- يهدف النوع الأول إلى التعرف على السيرة الذاتية للمبحوث، فيركز الباحث على الأحداث التي مارست تأثيرا هاما على مجريات حياته.
- يهدف النوع الثاني إلى معرفة الأحداث والأنشطة التي لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر، فيطلب الباحث من المبحوث أن يصف له ما حدث، وأن يصف كذلك له ردود فعل الأعضاء الآخرين اتجاه الحدث.
- يهدف النوع الثالث إلى استجواب عدد كبير من المبحوثين في نفس الوقت، والتحاور معهم، والإنصات إلى تعليقاتهم وردود أفعالهم اتجاه بعضهم البعض. إنها مقابلة تسمح لهم بالنقاش بين بعضهم البعض، وعرض آرائهم، وأفكارهم، ومشاعرهم حول موضوع المقابلة، مع احتمال إحجام البعض عن الكلام في حضور الأعضاء الآخرين.

أما عن طبيعة الأسئلة التي يطرحها الباحث أثناء إدارته للمقابلة الإثنوغرافية فيمكن تصنيفها إلى ثلاثة أشكال:

- إما أن يتخذ الباحث موقفا مناقضا للمبحوث، ثم يرصد ردود أفعاله.
- إما أن يطرح أسئلته على شكل افتراضات قد يؤيدها المبحوث أو يعارضها.
- إما أن يتخذ الباحث موقفا مثاليا بعيدا عن الواقع، ثم يرصد رد فعل المبحوث اتجاه هذا النموذج المثالي.

- **تحليل الوثائق:** يعتبر هذا التحليل سندا هاما للبيانات المحصلة عن طريق الملاحظة بالمشاركة، أو الحوارات الميدانية، والمقابلات الإثنوغرافية، وقد يعوضها أحيانا في حالة استحالة حضور الباحث في مواقف اجتماعية معينة. ينصب هذا التحليل على نوعين من الوثائق:

- الوثائق الرسمية وتشمل:(السجلات، تقارير الاجتماعات، التوزيع الأسبوعي للحصص الدراسية، الملفات الإدارية الخاصة بأعضاء مجتمع البحث، البرامج الدراسية، المجلات، الحوليات، الأرشيف، الإحصائيات، الرسائل الرسمية، أسئلة الامتحانات، مذكرات الدروس، الصور، التسجيلات الصوتية، أشرطة الفيديو...). فالباحث الذي يلاحظ وقائع الحياة اليومية في فصل دراسي، ويراقب سلوكيات التلاميذ، وردود أفعالهم، ويحلل آراءهم وأفكارهم، ويشخص طبيعة علاقاتهم ببعضهم البعض، وبغيرهم من الفئات البشرية داخل المؤسسة التربوية، يبقى بحاجة ماسة للإطلاع على الملفات الإدارية لهؤلاء التلاميذ، لما تنطوي عليه من معلومات هامة تتعلق بمهنة الأب والأم، عدد الإخوة، المستوى الاقتصادي والثقافي للأسرة، المنطقة السكنية، نوعية المدارس التي انتقل عبرها خلال مساره التعليمي...كونها تتضمن مؤشرات بالغة الأهمية في تفسير مواقف التلميذ وسلوكياته وآرائه. إنه بحاجة أيضا للإطلاع على مضامين البرامج الدراسية، مذكرات الدروس، الكتب المدرسية، كراريس التلاميذ، أسئلة الامتحانات...، ليقارنها بممارسات الأساتذة، فهل يلتزم هؤلاء فعلا بالمقررات؟ هل تتطابق أسئلة الامتحانات مع المادة المعرفية المقدمة للتلاميذ؟
- الوثائق الشخصية وتشمل: (المذكرات الشخصية، السير الذاتية، الرسائل، الرسومات، الكتابة على الجدران...). مثل هذه الوثائق بما تحتويه من وصف للخبرة المعاشة، والتجارب الخاصة، والمشاعر والأحاسيس، والآراء والأفكار، تفسر بشكل كبير مواقف المبحوث، وسلوكياته الاجتماعية، وردود أفعاله. فالباحث الذي يدرس جماعة من المراهقين، قد يجد فيما يكتبونه على الجدران، وفي مضمون الرسائل التي يتبادلونها فيما بينهم، وفي مذكراتهم الشخصية، وكراريس الوسخ... مؤشرات وبيانات هامة، تصف حياتهم العاطفية ومشاعرهم وأحاسيسهم.

- **شبه التجارب**: يرى "**جارفينكل**" أن وظيفة عالم الاجتماع هي محاولة التعرف على الجوانب الخفية من الحياة الاجتماعية، تلك الجوانب غير المرئية والتي لا نشعر بها نظرا لأنها مألوفة جدا، ومن ثم يجب الكشف عن هذه الجوانب ، وجعلها في متناول إدراك أعضاء المجتمع. ويمكن تحقيق هذا الهدف عن طريق مخالفة القواعد أو المبادئ الخفية بطريقة مفاجئة ، تجعلنا ندرك الجوانب المألوفة التي تختفي وراء السلوك، إذ أن مخالفة المألوف من ش أنها أن تكشف عن وجوده. ومثال ذلك أن يحاول الباحث تعمد التصرف كما لو كان غريبا مع أعضاء أسرته، مع تسجيل رد فعل أعضاء الأسرة اتجاه سلوك الباحث، وبذلك يتمكن من التعرف على القواعد السلوكية المتفق عليها داخل الأسرة . وقد طبقت

هذه الأداة مع بدايات انتشار المنهج الإثنوميتودولوجي، ثم تم العدول عنها لما أثارته من ردود فعل سلبية، لاسيما لدى الجماعات التي أجريت عليها هذه التجارب.

- **إن المادة التي جمعها الباحث بالاعتماد على الأدوات سالفة الذكر لابد أن تخضع لمستويين من التحليل:**

- التحليل العفوي، والذي يمارسه الباحث على الساخن، أثناء رصده للوقائع الاجتماعية، حيث يسجل تعليقاته على الهامش.
- التصنيف الفئوي، حيث يقوم الباحث بتنظيم المعطيات والبيانات على نحو منسق، متسلسل منطقيا، وموجز في آن واحد، مما يسمح له بالتحليل النهائي لها.

- **صياغة المفاهيم**: يستخدم الباحث في كتابة تقريره النهائي جملة من المفاهيم، قد تكون مستمدة من الرموز الثقافية لمجتمع البحث، فيوظفها كما هي في بحثه. أو يعتمد على قدراته الخاصة في نحت مفاهيم جديدة وثيقة الصلة بطبيعة البيانات التي صنفها وحللها، ومثل هذا الانجاز يعكس بشكل واضح قدرات الباحث الإبداعية.
- **التنظير**:لا يهدف المنهج الإثنوميتودولوجي إلى صياغة نظريات تفسر الواقع، على نحو ما يدعو إليه الوضعيون والوظيفيون والماركسيون، بقدر ما يهدف إلى وصف هذا الواقع، لذلك تعتبر مرحلة صياغة المفاهيم ذروة البحث الإثنوميتودولوجي.

5. االبعد الإيديولوجي للمنهج الإثنوميثدولوجي:

أثار ظهور المنهج الإثنوميثدولوجي جدلا واسعا في الدوائر السوسيولوجية حول تحديد بعده الإيديولوجي، فمنهم من رأى فيه منهجا يعكس توجها إيديولوجيا محافظا، و منهم من رأى فيه منهجا يعكس توجها إيديولوجيا راديكاليا.

يكمن الطابع المحافظ للمنهج الإثنوميثدولوجي في كونه لا يسعى لتقديم تصور نظري عن المجتمع، ولا رؤية معينة اتجاه العالم الاجتماعي ، وهو ما عبر عنه "**جارفينكل**" صراحة بقوله أن " البحوث الإثنوميثدولوجية ليست موجهة نحو تصحيحات معينة، كما أنها لا تقدم حلولا لمشكلات اجتماعية، ولا تشغل بالها بمناقشات إنسانية أو جدال نظري، فلا قيمة للنظريات التي تخدم مصالح معينة، ولا تعبر عن الواقع "[12]. يضاف إلى ما سبق تركيز هذا المنهج على دراسة مواقف الحياة اليومية، متجاهلا البناء الاجتماعي والتغيرات التي قد يتعرض لها هذا البناء، مما يعني عزوفه عن دراسة

القضايا الأساسية للمجتمع ، والمتمثلة في الصراع والتغير الاجتماعي والتحليل التاريخي والاقتصادي للبناء الاجتماعي. وعلى الرغم من اهتمام أصحاب هذا المنهج بدراسة التغير الاجتماعي على مستوى الوحدات الصغرى، إلا أنهم يدعون إلى تغيير الذات بدلا من تغيير البناء الاجتماعي، بدعوى أن أعضاء المجتمع هم الذين يشكلون الواقع أو الحقيقة الاجتماعية ، مما يؤكد الطابع المحافظ لهذا المنهج. في هذا السياق يؤكد **"ماكنون"** و**"جونسون"** أن المنهج الإثنوميثودولوجي منهج غير ثوري ، لأنه ينطلق من الوعي الفردي الذي يعني ضمنا حرية اختيار الأفراد لواقعهم الاجتماعي، ويعتبر هذا من وجهة النظر الماركسية موقفا محافظا، لأن فكرة حرية الإرادة هذه تنطوي على تبرير إيديولوجي لما هو قائم، فالإنسان الذي خلق عالمه الخاص مسؤول عن أفعاله [13]. ويذهب **"أحمد زايد"** إلى أن المنهج الإثنوميثودولوجي قد حقق قدرا من الانفصال عن التيارات الكلاسيكية في علم الاجتماع عندما اهتم بالحياة اليومية، و بسلوك الفرد في مقابل المجتمع، إلا أنه قد انتهى إلى ما انتهت إليه هذه التيارات من التأكيد على عناصر النظام العام، والاهتمام بالقيم و المعايير كضابط مطلق للسلوك.

لقد اهتم هذا المنهج بإمكانية قيام نظام اجتماعي عام أكثر من اهتمامه بقدرة الأفراد على تغيير هذا النظام و تحويله[14]. و يؤكد هذا الطرح **"ألفن جولدنر"** عندما يذهب إلى أن **"جارفينكل"** قد عارض **"بارسونز"** عندما أهمل دور الاشباعات المتبادلة في علاقات التفاعل، وعندما أهمل دور المشاركة في القيم الأخلاقية بين جماعات الفاعلين . ولكنه اهتم مثله مثل **"بارسونز"** بمتطلبات النظام الاجتماعي العام، عندما اهتم بمشاركة الفاعلين في القواعد و المعرفة التي تجعل التفاعل الاجتماعي المستقر ممكنا بينهم. فالعالم الاجتماعي يكتسب صفة الوحدة في نظر **"جارفينكل"** من خلال بناء جمعي من الفهم المتبادل بين الأفراد. [15]كما يؤكد ذلك **"سمير نعيم"** فالمنهج الاثنوميتودولوجي من وجهة نظره، يركز على الخبرات والمعاني المشتركة بين الأفراد ، بوصفها أساسًا للحياة الاجتماعية ، ويهمل في المقابل الاختلافات والصراعات الواقعية داخل المجتمع . ويتعارض ذلك تمام التعارض مع التحليل العلمي الواقعي ، الذي يبين بالأدلة القاطعة أن العالم تمزقه الصراعات على كافة المستويات ، وأن القدر المتاح من المعاني والخبرات المشتركة بين الأفراد في المجتمع الواحد، أو في مجتمعات العالم أقل بكثير من الاختلافات والصراعات[16].

في مقابل ما سبق، تذهب **"زينب شاهين"** إلى تأكيد الطابع الراديكالي للمنهج الإثنوميثودولوجي، والذي يكمن في تركيزه على الطريقة التي يشكل بها الأفراد واقعهم، وفي توضيحه بأن العالم الاجتماعي ليس

عالما جامدا. وما تتضمنه وجهة النظر هذه، هو أن الإنسان ليس مضطر ا لقبول دوره المفروض عليه في الحياة بشكل خانع، فإذا بدت الأبنية الاجتماعية صلبة وغير متغيرة، فهي كذلك لأن الأفراد يعتقدون فيها، بينما إذا رفضوا التسليم بما يسلم به الآخرون، فسيمكن إعادة تشكيل الواقع من خلال إعادة تعريفه.[17] ويتضح الطابع الراديكالي للمنهج الإثنوميثودولوجي أيضا من خلال كشفه عن الخصائص الكامنة في المجتمع. فأصحاب هذا الاتجاه ي ثقبون ويخترقون الأبنية الاجتماعية ويتعمقون فيها، بهدف إظهار وتوضيح خصائصها. ويؤكد هذا الطرح "**يونج young**" من خلال اعتقاده بأن المنهج ا لإثنوميثودولوجي استطاع الحصول على كل ما هو خفي أو كامن من معلومات عن المنظمات التي درسها ، وكشف عن طبقات عميقة للواقع الاجتماعي، وحصل على نوعية من المعلومات تختلف إلى حد كبير عن تلك التي تتحصل عليها المناهج التقليدية.[18]

مثل هذا الطرح يدفعنا للتساؤل: ما فائدة الحصول على بيانات مختلفة في نوعيتها، و ثرية في مضمونها إن لم تكن موجهة نحو تصحيحات معينة؟ إن المنهج لا يكون راديكاليا طالما توقف عند وصف الظواهر في إطار وجودها كأمر واقع، دون تجاوز ذلك إلى محاولة تغييرها بما يستجيب لمصالح الفرد وطموحاته. وعليه نؤكد بدورنا أن المنهج الإثنوميثودولوجي لم يذهب بعيدا عن التيارات الكلاسيكية المحافظة، من حيث عدم دراسته للتغير على مستوى الوحدات الكبرى، وإهماله لمسألة الصراع الطبقي العنيف التي ميزت واقع المجتمعات الرأسمالية، وتبريره للنظام القائم من حيث دعوته الفرد إلى التأمل في ذاته واكتشافها وتغييرها ، بدلاً من دعوته لتغيير واقع هالاجتماعي . ومما يؤكد هذا الم ضمون الإيديولوجي، تشجيع وتمويل بعض المؤسسات العلمية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والعسكرية، في الولايات المتحدة الأمريكية للدراسات التي تنطلق من هذا المنظور الجديد، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أن مركز البحوث بالقوات الجوية الأمريكية ، قد قام بتمويل عدة مؤتمرات بجامعة "كاليفورنيا" و"كولورادو"، اشترك فيها عدد كبير من علماء الاجتماع المهتمين بهذا المنهج، وذلك على الرغم من أنه يتجاهل البناء الاجتماعي، والعوامل المحددة للنظام العام، و يركز اهتمام هأساسا على مواقف الحياة اليومية.[19]

صفوة القول... على الرغم من تفاؤل بعض العلماء بآفاق المنهج الإثنوميثودولوجي، كونه يستمد أصوله من الفلسفة الظاهراتية، مما قد يؤدي إلى إبراز العنصر الإنساني الذي اختفى عندما تحول علم

الاجتماع إلى مهنة منصهرة في النظام الكلي للمجتمع، إلا أنه لا يمكن القول بأن هذا المنهج الجديد قد نجح في الانفصال كلية عن التراث التقليدي المرتبط بالنظام و المدافع عن مصالحه.

6. نقد وتقييم:

واجه المنهج الإثنوميتودولوجي انتقادات لاذعة ساهمت في عرقلة انتشاره، كما أثرت على مكانته، وعلى درجة تقبل عدد كبير من علماء الاجتماع له، نذكر أهمها: (20)

- الانقسامات داخل المدرسة الإثنوميتودولوجية: من الملامح المميزة لتطور المدرسة الإثنوميتودولوجية تلك الانقسامات التي ظهرت بداخلها، فقد سلك تلامذة " **جارفينكل**" وزملاؤه اتجاهات فكرية ومنهجية مختلفة عنه إلى حد ما، ومع تراكم الدراسات الأمبريقية اتسعت هوة الاختلافات وبدت أكثر وضوحا، لاسيما فيما يتعلق بنوع التحليل اللغوي وأهدافه وتقنياته. يؤكد هذا الطرح "**كوزر**" حيث يذهب إلى أن إثنوميتودولوجية "**جارفينكل**" تختلف عن إثنوميتودولوجية "**ساكس**"، كما أن إثنوميتودولوجية " **ساكس**"تختلف عن إثنوميتودولوجية" **سيكوريل**". فضلا عن أن بعض الإثنوميتودولوجيين يستندون إلى فينومينولوجية " **هوسرل**"، في حين يستند آخرون إلى الفلسفة اللغوية البريطانية. وعلى الرغم مما يذهب إليه الإثنوميتودولوجيون من أن هذه الاختلافات دليل على ثراء المدرسة وتنوع إسهاماتها وتعدد تقنياتها المنهجية، إلا أن الكثيرين من علماء الاجتماع يعتبرونها دليلا على ضعف المدرسة لا علامة من علامات قوتها.
- صعوبة اللغة والمفاهيم الإثنوميتودولوجية: انتقد عدد كبير من علماء الاجتماع صعوبة اللغة الإثنوميتودولوجية، وبعدها عن البساطة وعن اللغة السوسيولوجية التقليدية. فغزارة مصطلحاتها وغرابتها في آن واحد أديا إلى إحجام الكثيرين عن قراءتها. وقد أوجز " **كولمن**" هذه المعاني في عبارته الشهيرة "إن الوقت المستنفذ في قراءتها يفوق بكثير الفائدة التي يحصل عليها القارئ". فعدم استيعاب الفكر الإثنوميتودولوجي يرجع في نظر الكثيرين إلى الخصوصية التي تتميز بها لغته، مما حال دون قراءته واستيعابه، ومن ثم تقدير قيمته العلمية والمنهجية.
- شبه التجارب: إن اعتماد المنهج الإثنوميتودولوجي على شبه التجارب، جعل الكثيرين يصفونه بالشذوذ والتطرف. وبناء على ذلك لم تحقق تلك التجارب الغرض الذي استحدثت من أجله، وهو استقطاب العلماء وتوجيه نظرهم إلى أهميتها، بقدر ما أثارته من ردود فعل سلبية، حيث

اعتبرت مدخلا غير إنساني لدراسة الإنسان. ويؤيد هذا المنظور المجموعة التي أجريت عليها التجارب، والتي عبرت عن استيائها ورفضها لهذا الأسلوب.

- يقترب المنهج الإثنوميتودولوجي في نظر البعض من المنهج الوظيفي لاسيما عند "**بارسونز**" في ما يعانيه من تضخم لفظي ، كما أنه يتصف بقدرة على وصف مجموعة من الحقائق البديهية التي نعرفها جميعًا، دون أن يضيف إلى معرفتنا هذه شيئًا جديدًا.
- إن المنهج الإثنوميتودولوجي بتركيزه على الدراسة الميكروسوسيولوجية التي تسلط الضوء على الخصائص المميزة للأفعال الاجتماعية والمعاني الشائعة بين الأفراد، قد قصر اهتمام علم الاجتماع على دراسة هذا الحيز المحدود من الحياة، كما لو كان منعزلاً تمامًا عن كل ما يحيط به من متغيرات اقتصادية وسياسية ودينية وثقافية.
- كما أن المنهج الإثنوميتودولوجي بدعوته الفرد إلى تغيير ذاته، بدلا من تغيير واقعه الاجتماعي، جعل الإنسان عاجزًا حيال هذا الواقع ، مما حدا بالكثيرين إلى تصنيفه ضمن المعسكر المحافظ في علم الاجتماع.

الهوامش:

1. أبرز رواد الاتجاه الفينومينولوجي الذين مارسوا تأثيرا هاما على فكر "جارفينكل" نذكر: ألفرد شوتز (1959/1899)، إدموند هوسرل (1939/1859). راجع فؤاد زكريا، **نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان** ، دم، مكتبة مصر، 1991، ص ص (90،89).
2. "**هارولد جارفينكل**" عالم اجتماع أمريكي، ولد في 29 أكتوبر 1917م بولاية "نيوجيرسي" الأمريكية، نشأ وترعرع بين أحضان الأقلية اليهودية. تلقى تكوينه العالي بجامعة"كالورين الشمالية" . ناقش أطروحة الدكتوراه تحت إشراف رائد البنائية الوظيفية" **تالكوت بارسونز**" عام 1952، بجامعة "هارفارد"، حول موضوع"النظرة إلى الآخر: دراسة في مشكلة النظام الاجتماعي"، لكنه انشق عنه فيما بعد لاختلافات فكرية جوهرية، ليبرز تأثره بأفكار كل من "آرون غورفيتش" و"ألفرد شوتز". أنهى مشواره الأكاديمي كأستاذ فخري بجامعة كاليفورنيا بـ"لوس أنجلس". توفي في 21 أفريل 2011. لمزيد من التفاصيل راجع:

الموسوعة العالمية، www.universalis.fr/encyclopedie/**harold-garfinkel**/3-une-oeuvre/

3. تتكون كلمة إثنوميتودولوجي من: إثنو Ethno وتعني ناس، جماعة، أو سلالة (قومية أو لغوية أو عرقية)، وميتود méthod وتعني منهج، و logy وتعني دراسة. والمصطلح في مجمله يعني دراسة منهج الناس، أي دراسة الطرق التي يستخدمها الناس العاديون للوصول إلى قراراتهم، بالاعتماد على المعرفة الشائعة في المجتمع . وقد اختار "**جارفينكل**" هذا المصطلح الغريب صدفة عندما كان يتصفح أحد الملفات، حيث لفت نظره بعض العناوين مثل

Ethnobotany وتعني علم النبات الشعبي، و Ethnomedecine وتعني الطب الشعبي، وكلاهما يشير إلى الطرق التي يستخدمها الأفراد العاديون للتعامل سواء مع الأمور النباتية أو الأمراض، هذه الطرق مستمدة من معرفة شعبية وليس من مصادر علمية.

4. طلعت إبراهيم لطفي و كمال عبد الحميد الزيات، **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع** ، القاهرة: دار غريب، 1999، ص ص(145،147).
5. معن خليل عمر، **نظريات معاصرة في علم الاجتماع** ، الأردن: دار الشروق، ط 1، 1997، ص ص(295،296).
6. إرفنج زايتلين، **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع** ، ترجمة محمود عودة و إبراهيم عثمان، الكويت: ذات السلاسل، 1989، ص306.
7. معن خليل عمر، مرجع سبق ذكره، ص301.
8. زينب شاهين، **الإثنوميتودولوجيا**، مصر: مركز التنمية البشرية والمعلومات، 1987، ص ص(98، 103).
9. محمد علي محمد، **تاريخ علم الاجتماع**، مصر: دار المعرفة الجامعية، 1987، ص414.
10. طلعت إبراهيم لطفي وكمال عبد الحميد الزيات، مرجع سبق ذكره، ص ص(155، 156).
11. Georges Lapassade, **La Méthode Ethnographique**, www.vadeker.net/corpus/pfem/3-3_apprentissage_**garfinkel**.html
12. زينب شاهين، مرجع سبق ذكره، ص131.
13. المرجع السابق نفسه، ص131.
14. أحمد زايد، **علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية و النقدية** ، مصر: دار المعارف، ط 1، 1981، ص454.
15. المرجع السابق نفسه، ص ص(454، 455).
16. راجع: أحمد سمير نعيم، **النظرية في علم الاجتماع**، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، 1977.
17. زينب شاهين، مرجع سبق ذكره، ص76.
18. المرجع السابق نفسه، ص142.
19. طلعت إبراهيم لطفي وكمال عبد الحميد الزيات: مرجع سبق ذكره، ص159.
20. زينب شاهين: مرجع سبق ذكره، ص ص(98،103).

مجلة التراث تخبر جامعة الجلفة 2014